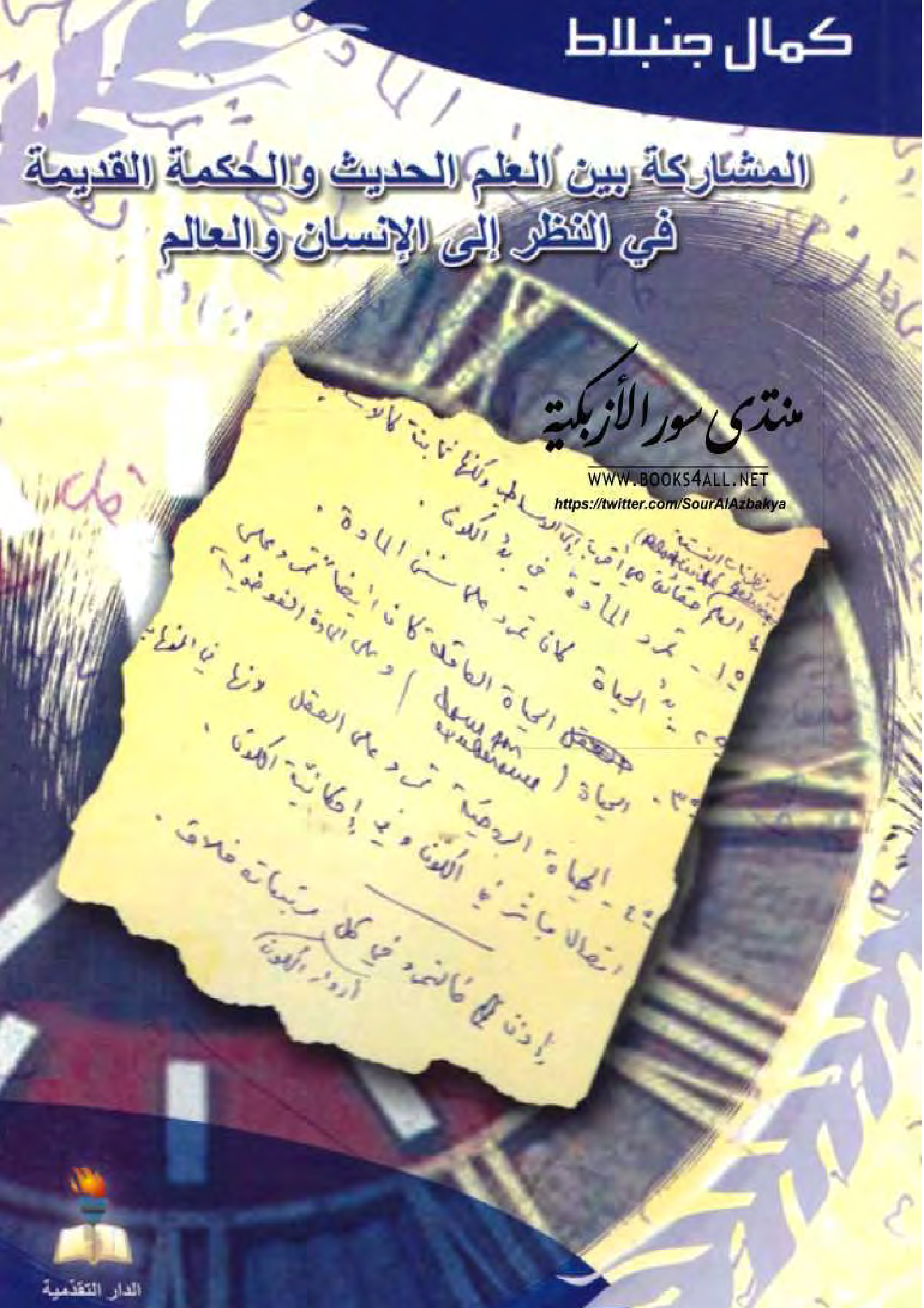

كمال جنبلاط
المشاركة بين العلم الحديث والحكمة القديمة
في النظر إلى الإنسان والعالم
منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya
الدار التقدمية



WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net



المشاركة
بين العلم الحديث
والحكمة القديمة

الطبعة الثانية

٢٠٠٧

حقوق النشر محفوظة

الدار التقدمية ـ المختارة ـ الشوف ـ لبنان

هاتف: ٥/٣١٠٥٥٥ ـ ٩٦١ـ ٥/٣١١٥٥٥ ـ ٩٦١

E – mail:moukhtarainf@terra.net.lb

http:// www.daraltakadoumya.com

كمال جنبلاط

المشاركة بين العلم الحديث
والحكمة القديمة
في النظر إلى الإنسان والعالم

محاضرة للمعلم ألقيت عام ١٩٦٨

التدقيق اللغوي

الدكتور سوسن النجار نصر



WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net

إهداء

« المشاركة بيْن العلم الحديث والحكمة القديمة في النظر إلى الإنسان والعالم » عنوان للكتاب كان في الأصل محاضرة ألقاها كمال جنبلاط من على أحد منابر الفكر في بيروت ـ الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فحلت بسمع أكثر الناس.

الموضوع، والقلم، كلاهما يوحي بأهمية الكتاب؛ فالأول يدور في محور العلم، والحكمة والإنسان والعالم، قديمًا وحديثًا... والثاني عطش دائم إلى البحث عن الحقيقة وشجاعة مثلى في قولة الحق له وعليه...

« إنَّ الحاجة إلى جعل المعتقدات تتوافق مع العلم، أكثر من الحاجة إلى جعل العلم يتوافق مع المعتقدات ولكن في مستوى الاختبار النفسي والعقلي والروحي... » .

للمرّة الثانية، تقوم الدار التقدمية بنشر هذه المحاضرة، في زمن لا يزال يشهد صراع العلم والحكمة لأجل غاية واحدة؛ ثبت الحقيقة وتحقيق إنسانية الإنسان.

نقدّم هذا الكتاب إلى جميع الأصدقاء والقرّاء.

الناشر

اعلم أن الحق قد خلق الخلق

من أصل هو عينه، كالحبة الواحدة

تخرج منها الحبوب.

محيي الدين بن عربي

المشاركة بين العلم الحديث والحكمة القديمة في النظر إلى الإنسان والعالم

تتقدّم وتنتشر المعرفة، ويتقدّم العلم في استكشافه للوجود، وفي استقرائه وتحليله للعنصر المجهول الأخير، وللسبب الأولي، ولهذه الطاقة الجامعة المصدرية ـ طاقة الطاقات، إذا صحّ هذا التعبير، *L'Energie de toutes les énergies* ـ بحيث أضحت وتضحي النظريّات العلمية أكثر فأكثر، المواجهة الفاعلة والمؤثرة في جميع المعتقدات الزمنية والاجتماعية، والنفسية والدينية والروحية ذاتها، كأننا نشرف على تكوين التأليف المعبّر والحاوي *La synthèse formulante* عن وعلى جميع عناصر هذا التحليل العلمي التجريدي للعالم الداخلي ـ عالم الفكر والعاطفة ـ وللعالم الخارجي ـ عالم الحواس. ويؤكد هذا الاتجاه إلى إيجاد نظرة موحّدة واقعية وعلمية للوجود الشامل، انصراف عدد أكبر من العلماء إلى دراسة علوم الحياة والنفس، وإلى استقصاء معرفة الظاهرات النفسية الباطنة أو العجيبة، بما فيها الخوارق والكرامات، والتي كانت، حتى عهد قريب، موضع اختصاص الدين وحده: *Les Phénomènes de la Parapsychologie*. وتحصل هذه الدراسة الموضوعية لمثل هذه الوقائع في الدول الغربية، وفي الاتحاد السوفياتي، والدول الماركسية الشيوعية أو الاشتراكية، وفي

بلدان العالم الثالث على السواء.

ويجب الاعتراف أنه ـ منذ أيام غاليليه وجورداني، وسواهما من العلماء الذين تعرضوا لاضطهاد الكنيسة والسلطات الزمنية بسبب أقوالهم وأفكارهم، حتى عصر آينشتاين وهايزنبرغ وداروين ومندل وهكسلي وشاردان وجونغ وماركس وغيرهم الكثيرين ـ أصبح يتوجب علينا أن نجعل معتقداتنا تتوافق مع العلم واستنتاجاته، أكثر من حاجتنا لجعل العلم ينطبق على نظرتنا الدينيّة للوجود.

ولكن الذي لا بدَّ من إيضاحه في هذا السياق، هو أن المشاركة والتوافق، في النظرة المستطلعة للكون وللإنسان، تبقى وتنمو وتتوضَّح أكثر فأكثر في مستوى الاختبار النفسي أو العقلي أو الروحي ـ سمّه ما شئت ـ الذي انبثق منه الدين أو التفكير الديني ذاته؛ وفي أساس ومصدر كلّ عقيدة دينية، على حدّ تعبير برغسون *Bergson*، وامتدادًا فيه، يقوم اختبارٌ لمجهول تمامًا، كما يقع لمسلك العلم نفسه. ومن هذه المشاهدة للحقيقة، أو لبعض فروع تكوينها في الحالتين، تنبع وتنحدر جداول المذاهب والشرائع، مبتعدة، في مسيرتها، وفي مستوى الجماعة، وفي تلبّسها بالتأويل والشرح واعتمال التقليد وترسبّات الفكر، عن ينبوعها الأول.

ولذا كانت المشاركة بين المسلكين والمعراجين تتعدّى الدين في مفهومه الموضوعي الشائع إلى الاختبار النفسي الصوفي العرفاني، وبشكل أوضح، إلى اكتماله وكماله وتتويجه واستقراره في الحكمة.

والدلالة على صدق الاختبار وصحة الرؤيا وحقيقيّة الاستنتاج، هي:

أولاً - في اليقين الناجم عن الإدراك المباشر بوساطة البصيرة العاقلة الرفيعة، بما يقابل البصر المتصوِّب بمقاييس العقل بالنسبة للعلم.

ثانيًا - في أن نتائج وتقرير هذا الاختبار العرفاني الحكمي هي ذاتها متوافقة متعادلة واحدة في جميع العصور والأزمنة والمذاهب والأمصار، أكانت في الهندوكية *Hindouisme* أم الطاوية *Taôisme* أم البوذية، أم الصوفية العرفانية الإسلامية، أم النصرانية، أم في المذاهب الفرعونية السرّية وفي اليونان القديم والزردشتية، وفي معتقدات السلتيين *Celtes* وفي مسلك أبناء التوحيد (أي الدرزية) القائم بيننا والمتفرِّع تراثًا من هذه الأصول والجذور والآفاق، وسواها من المذاهب في كلّ قطر وعصر. الأمر الذي أشار إليه الحكيم الكبير شري أتمانندا في قوله:

« When no two religions, mysties, yogins, scientists or philosophers agree, no two sages have ever disagreed, about the ultimate Truth ». (Spiritual Discourses, p. 410).

« حيث لا يستطيع أن يتفق دينان وصوفيان (في المعنى العادي للكلمة) ويوغيّان وعالمان وفيلسوفان، فما من حكيم يختلف مع حكيم آخر بشأن الحقيقة الأخيرة المطلقة ».

هذا التوافق بين النظرية العلمية وبين النظرة العرفانية حفّزا أكثر من عالِم كبير، على غرار روبرت أوبنهيمر *Robert Oppenheimer*، على أن يعكفوا على درس بعض مسالك الحكمة القديمة وطرق تفسيرها للوجود، بخاصة تلك التي تبرز على صفائها العقلي الكامل، ومنطقها الممحّص المتسلسل الأكيد، كالأدفيتا فيدنتا الهندية *Advaita Vedanta* والطاوية *Taôisme* ومسالك الأباطرة الأسطوريين *Les Empereurs légendaires* الصينيين، وما تبقى لنا من فلاسفة اليونان والكتابات الهرمسية المنتسبة إلى الفرعونية القديمة. هذا التوافق والتقابل والاشتراك في معاينة الإنسان والكون، أشار إليه، في محاضرة أمام المركز الأوروبي للبحث النووي *Centre Européen de Recherche Nucléaire*، العالِم الأستاذ *Neeman* في حديث له في أيار ١٩٦٧: « بأن الشرائع، التي بُنِيَ على أساسها ومثالها الكون، تعود فتلتقي مع أقدم التقاليد العبرية منها والهندوكية...» *(Planète, p.114)*. ويضيف كاتب المقال: « عندما تتأكد هذه الفرضية كواقع، ألن ينجم عنها تيار فكري يقودنا أخيرًا إلى فلسفة وميتافيزقيا تستحق فعلاً هذه التسمية ؟».

ويقول رينيه جروسه *René Grousset* وسيرج أليسييف *Serge Elisséev* في مقدمة لكتاب العالِم والفيلسوف الياباني سوكورازاوا *Sukurazawa*، وعنوانه *Principe unique de la Philosophie et de la Science d'Extrême-Orient (p.5)*:

« Or ces principes fondamentaux de la pensée d'Extrême-Orient, communs depuis longtemps aux divers systèmes, M. Sukurazawa nous invite à les comparer aux dernières données de la science moderne. A notre grande surprise il y a concordance ».

« إنَّ هذه العناصر الأساسية للفكر في الشرق الأقصى هي مشتركة منذ زمن بعيد بين المذاهب المتنوعة. ويدعونا السيد سوكورازافا إلى المقابلة بينها وبين نتائج ومقوّمات العلم الحديث، فنجد في دهشتنا الكبرى أن بينها توافقًا ومطابقة ».

إننا سنحاول في هذه التأمّلات السريعة أن نشير إلى بعض محاور المشاركة والتوافق بين ما يتيسّر من إثارته، في هذه الأمسية، من التقاء الحكمة والعلم الحديث، مستندين إلى أقرب وأوضح ما يمكن تبيانه، لأنَّ الموضوع يستحقّ في الواقع دراسة شاملة قد تستغرق بضع مؤلفات. وسنتّخذ، هَدْيًا وعبرة لنا، في تجوالنا المتواضع داخل سرّ التكوين المصون، هذه الأقاويل الصغيرة لهيراقليطس *Héraclite* ذاته، مردّدينها:

« Parmi ceux que j'ai entendu discourir, aucun n'est arrivé à comprendre que la Sagesse est distincte de tout... ».(p.38)
Car « La nature aime à se cacher ». (p. 39)
Et « L'Harmonie cachée surpasse l'harmonie visible... ». (Trois contemporains, p.40)
Donc « Il faut aussi se souvenir de celui qui oublie le chemin... ». (p.34 item).

« بين الذين سمعتهم يتحدّثون (عن هذه الأمور) ما من أحد استطاع أن يدرك أن الحكمة تتميّز وتتجرّد عن كل شيء.»

لأن « الطبيعة تحب أن تختبئ وأن تتوارى ».

و « الانسجام الخفي يتجاوز ويتعدّى الانسجام الظاهر ».

إذًا « يجب علينا أن نتذكر ذاك الذي نسي معالم الطريق ».

فللبحث إذًا حدٌّ وللرواية مدى، لا يمكن تجاوزهما.

ـ وحدة الوجود أو وحدة الطاقة والتكوين

اتُّهِمَ عدد كبير من العارفين الصوفيين المسلمين وبعض المسيحيين ـ رغم ضغط القرون الوسطى المسيحية عليهم وحرصها على مراقبة وتتبّع أقوالهم وكتاباتهم وأفكارهم بما يتوافق مع العقيدة المعلنة ـ اتُّهِمَ هؤلاء بالقول بوحدة الوجود، أي في النهاية بوحدة هيولى الوجود، أو بكلمة علميّة أوضح، بوحدة هيولى الطاقة الكونية الشاملة للوجود باطنه وظاهره.

ويرد على ذهننا بعض أقوالهم دون انتقاء ولا اختيار:

ـ للنوري قوله: « إنَّ الله لطّف ذاته فسمّاها حقًّا، وكثف ذاته فسمّاها خلقًا ».

ـ أو قول جلال الدين الرومي:

« نحن ووجودنا عدم، أنت هو المطلق المتجلّي في صفة الفناء ».

وسمع أبو يزيد رجلاً يقول: " عجبت ممن عرف الله كيف يعصيه. فقال رضي الله عنه: عجيب ممن عرف الله كيف يعبده ".

ـ ومعروفة هي دعوة الحسين بن منصور الحلاج الشهيرة:

" أنا الحقّ والحقّ للحقّ حقّ لابسًا ثوبه فما ثمَّ فرق "

أو هذه الأبيات الجميلة لعبد القادر الجيلاني (في الإنسان الكامل، ص. ٣١):

وما الخلق في التمثال إلا كثلجة، وأنت بها الماء الذي هو نابع
وما الثلج، في تحقيقنا، غير مائه، وغيران، في حكم دعته الشرائع
ولكن، بذوب الثلج، يرفع حكمه ويوضع حكم الماء، والأمر واقع
تجمّعت الأضداد في واحد البها، وفيه تلاشت، وهو عنهن ساطع

ومن كلام أبي يزيد أيضًا:

" انسلختُ من نفسي كما تنسلخ الحيّة من جلدها، ثمَّ نظرت إلى نفسي فإذا أنا هو. (أي الله) " .

" خرجتُ من الحقّ إلى الحقّ حتى صاحوا منّي فيّ: يا من أنا أنتَ ".

وكان يقول الشبلي: " التصوّف (وهنا في معنى العرفان) أن يكون الصوفي كما كان قبل أن يكون..."، أي محض وجود في " كنز العدم "، وفق الآية الحكمية التوحيدية.

ومن جميل شعر الشبستري في كتابه جلشن راز:

" الخمرة والشعلة والجمال كلّها للحقّ مجال، لأنه الظاهر في جميع الصور...". (نيكلسون، في التصوّف الإسلامي وتاريخه، ص. ٩٠).

وكذلك لجلال الدين الرومي:

" خلعت الاثنينية، ورأيت العالمين واحدًا:

عن واحد أبحث، وواحدًا أعرف، وواحدًا أرى، وواحدًا أنادي ". (الصوفية في الإسلام، ص ٩٣).

شذى سور الأزبكية WWW.BOOKS4ALL.NET https://twitter.com/SourAlAzbakya

وشعر ابن عربي، وقوله كثير في هذا المعنى، وكذلك ذو النون وابن الفارض والسهروردي وابن العطار، إلخ...

وفي أوروبا ظلَّ تأثير مستر إكهارت *Ekhart* وسواه مطموسًا عليه أجيالاً طويلة، لأنه شُبِّه لهم بأنه قال بوحدة الوجود.

وأبلغ قول في هذا الباب هو للحكيم شري أتماننداا:

" The world is the manyness of the One ".

" إنَّ العالم أو الخلق هو تعدّد أو تكثّر الواحد ".

تتجلّى هذه النظرية القائلة بوحدة الوجود عند الأقدمين وعند المحدثين بما يسمّونه بوحدة الطاقة أو وحدة هيولى المادة أو وحدة

الطبيعة الكونية *L'Unité de la Substance de l'Univers, L'Unité de l'Energie.*

وهذه النظريّات القائلة بوحدة هيولى المادة وبوحدة الطاقة نجدها واضحة تمامًا ومفصّلة في عرفان الشرق الأقصى الهندي والصيني والياباني، وفي حكمة اليونان.

ويلاحظ هايزنبرغ *Heisenberg* بحقّ:

« Nous pouvons ici remarquer que la physique moderne est à un certain point de vue très proche des doctrines d'Héraclite: si nous remplaçons le mot « feu » par le mot « énergie », nous pouvons presque répéter ses paroles mot par mot, du point de vue actuel ». (Physique et Philosophie, p. 58).

« يمكننا أن نلاحظ في هذا الباب أن علم الفيزياء الحديث هو، من بعض المواجهات، قريب جدًّا من عقائد هيراقليطس. فإذا ما أبدلنا كلمة « نار » بكلمة « الطاقة »، فإنّنا نستطيع أن نكرّر أقوال هيراقليطس، كلمة كلمة، من وجهة نظرنا الحالية القائمة ».

ويبدو أن هايزنبرغ كان يعلّق على هذه « الكلمات ـ الآيات » لهيراقليطس:

« Le feu (l'énergie) pilote tout à travers le tout, sans jamais laisser l'Univers immobile ».

« Le Tout est transformé en feu, (c.à.d. en énergie), et le feu (l'énergie) en toutes choses, comme les marchandises sont échangées contre l'or et l'or contre les marchandises ». (Trois contemporains, p. 36).

" إنَّ النار (أي الطاقة) تقود الكلّ عبر الكلّ، دون أن تترك الكون أبدًا بدون حركة ".

إنَّ الكلّ يتحوّل إلى نار (أي إلى طاقة) والنار (أي الطاقة) إلى جميع الأشياء، تمامًا كما أن البضائع تُستبدل أو تُبدّل بالذهب، والذهب بالبضائع ".

ويضيف هايزنبرغ - وكأنه يفكر بلاوتسي وكونفوشيوس، وبنظريات الأباطرة الصينيين القدماء، وبالكوسمولوجيا الهندية:

« L'énergie est en réalité ce qui fait mouvoir, on peut l'appeler la cause première de tout changement, et l'énergie peut se transformer en matière, en chaleur et en lumière ». (p. 58)

" الطاقة هي في الحقيقة هذا الذي يُحْدِث الحركة. ويمكن أن نسمّيها السبب الأول لكلّ تغيير أو تبدّل. وتستطيع الطاقة أن تتحوّل إلى مادة وإلى حرارة وإلى نور ".

وفي معرض بحث عن التحليل النووي الأخير الكاشف لحقيقة المادة، يقول لنا روبرت لينسن *Robert Linssen*:

« De la complexité pratiquement illimitée des matières hétérogènes où se situait le point de départ de notre voyage vers le cœur des choses, nous arrivons à l'unité d'une énergie fondamentale ».

« Ainsi que l'exprimait le physicien Max Planck cette énergie – une qui n'a ni nom, ni forme, ni propriétés particulières, se matérialise en grains résultant du mouvement de sa

propre puissance et acquiert, par l'ingénieux artifice des dispositions électroniques, des formes et des propriétés particulières».
(La Spiritualité de la Matière, p. 52).

« من تشعّب المواد والعناصر المتغايرة اللامحدود، والذي انطلقنا منه في رحلتنا إلى قلب وصميم الأشياء، نصل إلى وحدة طاقة أساسية ».

« وكما كان يعبّر عن ذلك ماكس بلانك *Planck*، هذه الطاقة الواحدة، التي لا اسم لها ولا شكل، ولا ميزات أو صفات خاصة، تتكثف في حبيبات ناجمة عن حركة قوة هذه الطاقة ذاتها، ويتمّ لها، بواسطة الترتيبات والاعتمالات الإلكترونية، الحصول على أشكال وصفات خاصة ».

وفي الواقع يقودنا هذا التحليل والكشف الأخير للمادة، إلى تبخّرها تمامًا وكليًّا في هذه الحالة من التفكك الكامل والانصهار التام، وانعدام أية ذبذبة أو حركة أو صورة أو كيفية أو تحديد ماهية فيها، والتي يسمّيها العلماء حالة « البلاسما » *Etat de plasma de la matière*، أو الحالة الرابعة للمادة، والتي يفترضون وجودها في بعض المجرّات والنجوم الشديدة الحرارة؛ فتقوم الحرارة العالية جدًّا بتفكيك وتهديم كلّ شيء في المادة، حتى وكأنها تصبح محض حالة، أو شيئًا مكوّنًا من لا شيء، أو شيئًا في لا شيء، ولا يمكن طبعًا وصفها بشيء، ولا نستطيع نعتها بالعدم لأنّ الوجود لا يتجرّد عنها؛ ففيها استبطان الطاقة والجزيئات والذرّات والصور والحياة والنفس والفكر، يكون

على تمامه، وهي الباطن للظاهر الذي « سيستجدّ » أو سيوجد فيما بعد.

ويتصوّر العالِم فريد هويل *Fred Hoyle* كيف تبرز حبيبات المادة وبذور التموّجات، وهيالم الكواكب والنجوم والأجرام، على اختلاف أنواعها وأحجامها، من هذا « الفراغ المليء »، كما حصل في بداية التكوين يوم كانت الحرارة ذاتها في هذه اللطيفة الأولى المسمّاة غير موجودة وقبل انفلاق رواية الزمان والمكان، وإنّما وجدا بوجود « المادة ـ الروح »، أو روح المادة، أي جوهر المادة ـ والروح لا تعني شيئًا آخر ـ والزمان والمكان لا ينفصلان عنها ولا يتقدّمان في ضحى التكوين.

ويفترض العلماء اليوم أنّ هذه المادة ـ في حالة تحلّلها الأول اللاشيئي الذي يعود فيظهر أيضًا في المستقبل الأخير ـ أن هذه المادة السابقة لحالة « البلاسما » كانت متجمّعة مستقطبة كلّها، مغلّفة مضغوطة بلا فراغ ولا ضغط ولا انتشار، في البذرة ـ الحبة الأولية، والتي يسمّيها العلماء العصريون الذرّة الأساسية الأولى *L'Atome Primordial*، وهي « البندو *Bindu* » الهندية والبيضة الكونية *Cosmique L'œuf*، أو بيضة الذهب *L'œuf d'or*، في الهندوكية أيضًا وفي سواها من مسالك العرفان، وهي ذاتها نقطة البيكار في تكوير دائرة الوجود، و« حبّة كُنْ » في كتب إخواننا الموحّدين الدروز، قبل أن تنطلق هذه القوى الكامنة والطاقات المستبطنة، كالقنبلة الهائلة المتفجّرة، لتبرز عوالم الحركة والتكوين، المتباعد بعضها عن بعض وعن محورها في

حركة انفلاقها وانتشارها العجيب في اللانهاية، وفق نظرية وواقع *L'expansion de L'Univers*، انفلاش وتوسّع الكون في العلم الحديث، هذا الذي كان يسمّيه حكماء الهند « شهيق البرهمان الكبير *L'Inspiration de Brahman* » والذي سيقابله، بعد اكتمال هذا الانتشار والانفلاش في حلبة الوجود، انكماش وعودة وتجمّع واستبطان في البيضة وفي الحبّة أو الذرّة المادية الأصلية، وهو « زفير البرهمان *L'Expiration de Brahman* »، فيكون دور من أدوار التكوين قد انقضى، « فرجعت الدائرة، على حدّ تعبير إخواننا الموحّدين، أي دائرة الوجود الظاهر، إلى نقطة البيكار »، أي إلى نقطة أو حبّة الكينونة البسيطة الجامعة الأولى التي انطلقت منها وانفجرت وتكوّرت.

إلى هذه المكاشفة السنية لوحدة الطاقة والوجود، يشير الحكيم فيفكتندا في كتابه عن « الجنانا يوغا » شارحًا معتقدات الأقدمين (ص. ٢٣٣):

« Ce qu'à notre époque nous appelons matière était appelé bhûtas ou éléments extérieurs par les anciens psychologues. D'après eux il y a un élément qui est éternel, et tout autre élément est un produit de celui-là. Cet élément éternel est appelé akasha. Il est quelque peu semblable à la notion de l'éther chez les modernes bien que la similitude ne soit pas complète. A côté de cet élément se trouve l'énergie primordiale appelée prana. Prana et akasha se combinent et se recombinent et forment entre eux les éléments. Puis à la fin du Kulpa (c.à.d. du cycle de la Genèse), tout s'affaisse de nouveau et retourne à l'akasha et au prana ».

« هذا الذي نسمّيه في عصرنا مادة، كان علماء النفس الأقدمون يطلقون عليه تسمية « بهوتا ». ووفق تعاليمهم، يوجد عنصر هو أزلي، وجميع العناصر الأخرى هي نتيجة هذا العنصر. ويسمّون هذا العنصر الأزلي « أكاشا »؛ وهو شبيه قليلاً وإلى حدّ ما بمفهوم الأثير عند المعاصرين، بالرغم من أن هذا التشابه ليس كاملاً. وإلى جانب هذا العنصر توجد الطاقة الأساسية الأولى المسمّاة « برانا ». وتتفاعل البرانا والأكاشا وتتركّبان من جديد، وتؤلّفان بذلك جميع العناصر والكائنات؛ ثم يتهدّم ويتفكك كل شيء من جديد ويعود إلى الأكاشا والبرانا (في حالتها البسيطة الأولى) ».

وفي هذه الفقرات للعرفان الهندي القديم، الذي ينقله إلينا الحكيم فيفكننندا بلغة العصر، تبرز لنا حقيقة المادة كما يتصوّرها العلم الحديث في تحليله بأنها في آن واحد: متموّجة ومتجزئة، *Particulaire et ondulatoire, particule et onde*، أي جزيء وموجة في آن واحد، كما برهن عن ذلك لويس دي بروغلي *Louis de Broglie* وسواه من العلماء.

وهذا التحليل يتوافق مع كون المادة تتضمّن في جميع مستويات ظهورها، وتُبرز الواقع « الكتلوي » أو ثقل المقاومة لتبدّل السرعة *La masse*. وقد تظهر بوادر التحرّر من هذا الثقل « الكتلوي » الملازم لأجزاء المادة في تحرّكها، إلى أن نستطيع أن نصل إلى حالة من المادة يزول فيها هذا الثقل الكتلوي، أو تنفصل البرانا فيها عن الأكاشا أو يتناقض مع اتجاه طاقة معينة، وهو ما يعمل لأجل تحقيقه بعض العلماء

المتقدّمين في ما يسمّونه *Les anti-gravitons* أو الحبّات المقاومة للثقل، وكما يبدو أن ذلك وقع، تحت تأثير العامل الروحي، لعدد من المتصوّفين الذين ارتفعوا ولو برهة بجسدهم في الهواء إلى علوّ معيّن.

ونرتفع قليلاً في مستوى المراقبة والتحليل...

فيوضح سوثهل *Soothhil* لنا ماذا كان يعني لاوتسي بالطاو *Tao*، ويقرب ذلك الآن من فهمنا، ولو أن " الطاو " يتعدّى في الواقع نطاق الازدواجيات:

« Le Tao ne peut être ni vu, ni entendu, ni touché, quoi que sans substance, il renferme la substance de tout ce qui est. Il produit, pénètre, nourrit et parachève toutes choses. Il n'a pas de forme et cependant contient toutes les formes possibles. L'homme suit les lois de la terre, la terre suit celles du ciel, le ciel celles du tao, et le tao celles de la spontanéité. Le Tao est donc à lui-même sa loi. Considéré comme immuable ou éternel, il n'a pas de nom, mais quand il a produit l'ordre cosmique et les phénomènes, il est nommable ». (Soothhill, Les Trois religions de la Chine, p. 47).

« لا يمكن رؤية الطاو ولا سماعه أو لمسه. وبالرغم من أن ليس له هيولى *substance*، فإنه يحوي هيولى كلّ ما هو كائن. إنّه ينتج ويغذّي ويكمل جميع الأشياء ويتداخل فيها. ليس له شكل، بَيْدَ أنه يتضمّن جميع الأشكال الممكنة. يتبع الإنسان شرائع الأرض، والسماء تتبع شرائع الطاو، ويتبع الطاو شرائع البدهيّة (بدهيّة التكوين). إذًا

الطاو هو شرعة ذاته. وإذا ما اعتُبِرَ كغير متبدّل أو أزلي، فلا يكون له اسم؛ ولكن عندما يظهر ويبدع النظام الكوني وعالم المظاهر فيكون بالإمكان آنذاك تسميته ".

وما أروع تعبير الجامي الصوفي العارف، في وصفه وحدة الوجود هذه " من الأبدية، كشف المحبوب حجاب جماله، في فردانية الغيب، ثم رفع المرآة إلى وجهه هو، وكشف عن جماله لنفسه. الكلّ واحد، فلا اثنينية، ولا أثر للأنت والأنا !" (نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ص. ٨٠).

ويوضح هايزنبرغ أن التمييز والتفريق والتناقض الذي حدث فيما بعد بين الروح والمادة، نجم، في العصور الحديثة، عن تأويل خاطئ لنظريّات ديكارت *Descartes* الميكانيكية بتفسير حياة الحيوان. ويُذكر أن هذا التفريق والتمييز لم يكن موجودًا وقائمًا في الفلسفات اليونانية القديمة. ونضيف أنه غير موجود على الإطلاق في أية نظرة عرفانية للوجود، في مصر الفرعونية، وفي الهندوكية، وفي الطاوية، والبوذية، والزردشتية، وسواها... أوَلم تكن عبادة النار رمزًا ودلالة لوحدة طاقة الكون ولأزلية هذه الطاقة؟! وألطف الصور للوجود القائم هي النار والنور المتلازمان في الواقع! ثم إنّ كلّ شيء، في تصوّر العلماء الفيزيائيين العصريين، وفي حدس آية الإنجيل وسورة القرآن الكريم، إنما هو مصنوع من نور، ويعود في بعض مراحل تفككه وهلاكه الظاهر إلى طاقة نور، وفق تعبير العالِم الفيزيائي لويس دي بروغلي *Louis*

de Broglie... « الله نور السماوات والأرض »، « ومن النور ولد كلّ شيء ».

ولكننا نعتقد أن التميز والتفريق بين الروح وبين الجسد ـ هذا المرض، أو هذا العَمَه الذي اعترى الدين والفلسفة الوسيطة والحديثة بضع قرون ـ يعود إلى قبل ذلك بكثير، وإلى التأويل الخاطئ، الذي انحدر إليه الإنسان العادي والمؤمن الساذج، لبعض النظريات الزردشتية، وبخاصة المتصلة بتناقض النور والظلمة، والمعرفة والجهل، وسواها، في رواية لبدء التكوين. ثم تجلّى هذا التناقض في قصص الشياطين والآلهة وفي وجودية الخير والشر، والصلاح والفساد. ولم يفطن المفرّقون والموزعون أن الظلمة لا تكون بدون النور، والنور لا يكون بدون الظلمة، فكلاهما مكمّل ومقابل للآخر *complémentaire*، أو هو وجه معكوس للآخر.

وفي الحقيقة، إنها نزعة طبيعية وعفوية للفكر تقضي ـ إن لم تتنبّه إليها ـ بأن تتوجّه إلى التنوّع والتناقض في نظرتها المنحدرة من قمم العقل الصافي ولطافته، إلى وهاد مظاهر الوجود وكثافتها.

وحدة الوجود هذه، وحدة جوهر الوجود، وحدة الطاقة والهيولى في الوجود، هي الافتراض والأساس الذي يتقدّم على ضوئه العلم، كما يبدي ذلك آينشتاين *Einstein* وهايزنبرغ *Heisenberg* وسواهما، وهي أيضًا نتيجة الاختبار الذي أدركه وأعلنه العرفان منذ آلاف السنين، ويتوارثه الحكماء والعارفون جيلاً بعد جيل.

يقول هايزنبرغ:

« Cette matière bouillonnait de vie, et l'on ne voyait pas de raison valable pour souligner la distinction entre matière et esprit, entre le corps et l'âme ». (Heisenberg, p. 75).

« هذه المادة كانت تغلي وتفور بالحياة، ولم يكن هنالك من سبب مقبول للتمييز بين المادة والفكر، بين الجسد والروح ».

وفي هذا المعنى ورد لهرمس:

« Tout l'univers est suspendu à un unique principe, et ce principe dépend lui-même de L'Un et Seul». (Hermès, I, p. 119).

« إنّ الكون بأسره معلّق بعنصر فريد واحد، وهذا العنصر بدوره يرتبط بالواحد الأحد ».

ويذهب هيراقليطس أبعد من ذلك، وفي ما يشير إليه أيضًا فيفكنندا (جنانا يوغا، ص ص. ١٦٩ ـ ١٧١):

« Ni l'ombre ni la lumière, ni le mal ni le bien se diffèrent; leur nature est une et identique ». (Trois contemporains, p. 32).

« لا الظلمة ولا النور، وكذلك لا الشر ولا الخير يختلفان؛ فطبيعتهما واحدة، وهي هي ذاتها ».

ثم يضيف عن تصوّر الناس عادة:

« Croyances des hommes, divertissement d'enfants ». (Trois contemporains, p. 34).

« اعتقادات أو معتقدات الناس هي ملهاة للأطفال ».

ـ ماهية المادة

يذهب لاوتسي مذهبًا لا نستطيع إلا أن نتبعه فيه، بأنه سيحاول التعبير عن الحقيقة العارية، ولو بدا ذلك في الظاهر تجديفًا:

« Il (le tao) semble avoir été avant Dieu ».

« ويبدو أنه (أي الطاو) كان موجودًا قبل الله ». أي قبل أن يميّز الفكر بين العبد والربّ، فيخلق الإنسان الله المعبود ـ لا الحقيقة الموجودة بحدّ ذاتها، أي الحق ـ من تصوّراته.

في المرحلة التي نعيشها ونعاينها من استكشاف العلم الحديث، نرى أنَّ المادة قد تبخّرت في مجاهر واختبارات ونظريّات علماء المادة، وأنَّ ما كنا نحسبه جامدًا مستقرًّا ملموسًا، منظورًا، محسوسًا في الظاهر، هو الحركة ذاتها وهو الفراغ، ولكنه ليس هو الخواء المعدوم، بل هو الفراغ المليء بالطاقة والمشعّ بتموجاتها. فنحن نعلم اليوم أنَّ ما ندركه حسيًّا غير مطابق لحقيقة الأشياء، وأضحت كلمة الخدعة أو التوهّم *Illusion* أو *Maya*، وفق التعبير الهندوكي الشهير، تتوارد على الأفكار وعلى عقول العلماء وفي كتاباتهم. ويوحي أحدهم ـ السيد تيبو *Thibault* ـ بفكرة الفراغ هذا المليء بالطاقة، أنّه لو تمكّنا من تقريب وضغط وإلصاق حبيبات المادة التي يتألّف منها الكون، وأزلنا المسافات في ما بينها، لما ملأت جميع حبّاتها أكثر من نصف قمع واحد

للخياط. هذا إذا استقرَّ رأينا على أن المادة مكوَّنة من جزئيّات ومن تموّجات *Particules Ondulatoires*، وليست فقط تموّجات لشيء يتعدّاها، لأن مبدأ التشكك العلمي *Le principe d'incertitude* يحول حتى الساعة دون الجزم في ذلك.

ولا بدَّ من إيراد هذه الكلمة البليغة لديمقريطس *Démocrite*:

« Une chose ne fait que paraître avoir une couleur, que paraître sucrée ou amère. Seuls les atoms et le vide ont une existence réelle ». (p. 631).

« إنَّ الشيء يبدو فقط وكأنَّ له لونًا وكأنّه حلو المذاق أو مرّه، ولكن هي الذرّات والفراغ التي توجد وحدها حقًّا ».

هذه الطاقة الكونية الأولى التي يشرف عليها العلم الحديث ويؤكدها، هي البرانا *Prana* في نظريّات الـ *Samkhya* أو التنترا *Tantra* الهندوكية، وهي ذاتها ما كان يسميّه اليونان « الريح » أو « النسيم » *Le vent* أو النفخة، أي *Le souffle*؛ والبرانا معناها الطاقة والـ *Souffle*، وهذا الفراغ المليء بالطاقة المشبع بقدرة الحركة والتكوين، هو ما تطلق عليه الحكمة الهندية اسم *Sunya* أو *Çûnyata* في السنسكريتي، و*Ku* في الياباني و*Taikyoku* في الصيني. وسنرى ذلك في إلماحنا لنظرة التكوين *Cosmogenèse*.

وهذه الطاقة الكونية هي التي تشعُّ بالنور والحركة، وتتموَّج وتتذبذب في المادة، ثمَّ تتحوَّل وتترقَّع إلى طاقة الحياة في الوجود الحيّ،

ثم ترتفع، في تحوّلها وتشخّصها الأخير، إلى فكر وعقل الإنسان. وفي ذلك يقول فيفكنندا:

« *Le prana (l'énergie) est la force vitale en tout être. La pensée est la manifestation la plus subtile et la plus élevée de prana*». *(Les yogas pratiques, p. 401).*

« البرانا (أي الطاقة) هي القوة الحيّة في كلّ كائن. والفكر هو ألطف مظاهر البرانا (أي الطاقة) وأرفعها ».

ـ الفردانية المنعكسة في الوجود

إذا كان الوجود، في جوهر أساسه ولَبِنَة بنيانه، واحدًا كما يُظهر لنا ذلك العلم الحديث، فإنَّ الاختلاف بين مادة ومادة وبين كائن وآخر، في سُلَّم التكوين، ينجم عن تباين في درجات التركيب والتعقيد *Complexification*، على حدّ تعبير تيلار دي شاردان.

على أنَّ لهذا التعقّد أو التركيب قواعد ومسالك في إبراز ونشر تنوّعه المتعدّد، المتناهي تدرّجًا غير متّصل *Discontinu*، كأنَّ الطبيعة تتبنّى شرعة القفز من موجود إلى موجود آخر، ومن مستوى إلى مستوى تال. فأول ما تظهر عناصر الطاقة في صلب الذرّة تكون على شاكلة شحنات محدّدة معيّنة *Quanta*: فالفردانية تولد في الواقع منذ نشأة المادة الهيولانية النوويّة الأولى، إذا صحَّ التعبير، في شكل حزيئات محدودة الطاقة، معيّنة الشحنات، أكانت كواركس *Quarks*

والكترونات وميزونات ونيوترونات أو سواها... ثم نقفز، بزيادة العناصر بعضها لبعض على التتالي، في سُلَّم تكوين العناصر المادية البسيطة والمركبة. وهذه الشحنات التي تمتلئ بها الجزيئات يمكن تحديدها بأعداد. وهكذا يدخل العدد منذ البدء في تكوين المادة، ومعه تدخل الفردية إلى نطاق مظاهر التكوين، لأنَّ كلّ جزء يتميّز بعدد معيّن، لا يمكن زيادته أو إنقاصه دون أن ينهدم صرح وكيان هذا الجزء الصغير أو يتبدَّل إلى شيء آخر، وهكذا بالنسبة لكافّة الكائنات. فشرعة الانقطاع *Discontinuité* فيما بينها هي ذاتها مصدر هذا التنوّع، وبالتالي مصدر هذه الفردية.

ما أقربنا في هذا التصوّر لنظرة فيثاغورس *Pythagore* للوجود: " كل شيء هو عدد *Toute chose est nombre* "، وفق ما نُسِبَ إليه في كتاب الـ *Timée* لأفلاطون! *(Physiques et Philosophie, p. 69)*.

وهكذا فإنَّ وحدة الطاقة، أي وحدة الوجود، تتجلَّى، بما يرمز إلى أحديتها ووحدانيّتها، في جميع العناصر والكائنات والمستويات، وكأنَّ الكلّ مشتقّ من العدد الواحد، أو كأنَّ الواحد الوجودي الأصيل ينعكس في مرايا جميع الموجودات، على حدّ التشبيه الحكمي المأثور.

ولولا هذا التكوين العددي للعناصر والكائنات، في سُلَّم ارتقائها وارتفاعها من البسيط واللطيف الأول إلى أعلى مراتب تطوّر الوجود الكثيف، لكان يصعب تطبيق علم الحساب والهندسة والجبر في تحليل

وتفسير هذا الوجود الظاهر، وفي إيجاد مقاييسه وشُرَعه.

وإننا لا نتمالك من ذكر بعض ما ورد في كتب هرمس الهرامسة الذي ينطبق حرفيًّا على ما نشير إليه:

" En outre, dans tous les corps composés, en général, il existe un nombre propre à chacun d'eux. Car, sans nombre, il est impossible que se produise ni combinaison, ni composition, ni dissolution: ce sont les unités qui engendrent le nombre, qui l'augmentent, et qui de nouveau, quand il se dissout, le reçoivent en elles-même, cependant que la matière demeure unique ". (Hermès trismégiste, I ,p. 180).

" وعلاوة على ذلك، فإنه يوجد عامة في جميع الأجساد المركبة عدد خاص بكلّ منها. لأنه بدون العدد ووجوده، يستحيل وقوع التراكيب والالتحامات، ويستحيل كذلك حصول الانحلال والاضمحلال: هي الآحاد التي تكوّن العدد، وتزيده، وهي التي تتقبّله في ذاتها من جديد، عندما ينحلّ ويتفكك، بينما تظلّ المادة هي هي، واحدة ".

ويجدر في هذا الاعتبار إظهار دور الوتيرات أو تموّجات الإيقاع *Rythmes*، كمجلى وكتمثيل للعدد، في حركة التكوين الدائب في حقل الفكر والجسد والحياة والمادة على السواء. فكلّ شيء يسير أو يتحوّل وفق وتيرات الإيقاع هذه، *Tout est rythme*، وكأنَّ الكون انسجام لأنغام وتيرات هذا الإيقاع، على حدّ تعبير فيثاغورس *pythagore*، والذي لا يختلف فيه عن مواجهة العلم الحديث.

ونحن نختلف هنا عن نظرة تيلار دي شاردان للتشخّصية وللفردانية، *La Personnalisation* التي يعتبرها العالِم والمؤلف الأنتروبولوجي الكبير ثابتة قائمة بذاتها وحقيقة وجودية ترتفع، في تظهّرها وتجلّيها في سُلَّم الكائنات، حتى تبلغ - إن بلغت جوهريًّا - نقطة الأوميغا *Le Point Oméga*، أي النهاية والغاية، انطلاقًا من التطوّر السائر بالكينونة والمسافر بها من نقطة ألفا *Alpha*، أي من محور منبلَج صبح التكوين. ونحن نعتقد، كما سنوضح ذلك، وفي سياق اختبار الحكمة والعرفان القديم المتجدّد، أنّ الفردانية لا وجود لها بحدّ ذاتها، ولا كينونة خاصة ثابتة وواحدة لها، بل هي محض انعكاس، وهي مظهر من مظاهر ضرورة تلاحم ووحدة الذرّات في الجرم الواحد أو الخلايا في الجسم الحي. *C'est une unité opérationnelle*، هي وحدة فعل وتفاعل وارتباط وتوجيه؛ هي ذاكرة المادة لا أكثر، تلعب دورها في ربط الماضي بالمستقبل من خلال الحاضر الهارب بلا هوادة. فالتشخّص أو الفردانية تفنى بفناء التركيب الذي نجم عنه. وفي هذا المعنى، إنّنا في كل ساعة، في كلّ ثانية، نموت ونحيا من جديد، في محاولة التقاطنا الدائمة للمقبل علينا من نوازع السببيّة التي يكون الماضي قد علّقها بصيرورتنا، وغرسها فينا، ودفعنا بها إلى الأمام.

- الوجود والحركة

" كلّ شيء هو حركة ". « *Car tout est mouvement* »

" *Dieu, lui, enveloppe tout et pénètre tout: car il est énergie et puissance. Et il n'y a rien de difficile à concevoir Dieu, mon enfant* ". *(Hermès, p. 182)*.

" إنَّ الله يحيط بكلّ شيء ويتداخل بكلّ شيء: لأنه طاقة وقوّة. وليس من الصعب، يا ولدي أن نتصوّر ما هو الله ".

هذه الفردانية الظاهرة، التي تتبلور في سُلَّم الكائنات، والتي تبدو على شيء من الوحدة والارتباط والاستقرار النسبي، ليست في الواقع إلا مظهرًا ومجلى لضرورة عملية تكوين الشيء ذاته، بما يفرضه بقاؤه واستمراره وصيرورته النسبية والمحدودة. وإنّما هي انعكاس لما يسمّيه بعض علماء البيولوجيا " بالمحور المنظِّم والموجِّه والجامع لطاقات الجسم ". هو " النوس *Nous* " الفردي لكلّ كائن حي وفق الفلسفة اليونانية القديمة *Le centre intégrateur* في مفهومه الموضوعي؛ ولولا هذا المحور، لما حافظ الجسد، مثلاً في نموه، على وحدة من التخطيط والتنمية والبلوغ متناسقة؛ هذا الذي نسمّيه الروح أو النفس في المواجهة البديهية لوحدة تكويننا، على الأقل مدّة مرحلة معيّنة من الزمن، ما بين ولادة وموت.

على أنَّ هذه الفردية الظاهرة والوحدة البيّنة ليست، كما يتوهّم البعض ويعتقدها، ثابتة مستقرّة، ذات ماهية واحدة وغير متغيّرة *Identique à elle-même* خلال الصيرورة والزمان، بل هي عامرة أيضًا بالصيرورة والحركة داخل " المثال " الكينوني المتحرِّك هو ذاته أيضًا، لو استعرنا للمناسبة مفاهيم أفلاطون للدلالة على ذلك.

فكلّ ما نستطيع أن نقوله اليوم عن الأنا الظاهرة في الإنسان التي ينسب كلّ نشاطاته إليها، هو أنّها على تعبير *Jung* على ما أذكر، *Une tension polarisée*، أي حالة من التجاذب المتوازي المستقطب.

هذه الماهيّة للوحدة الفردية الظاهرة في جميع الأشياء والكائنات هي على شاكلة ما شرحنا، أي أنها وحدة فعل وتصوير *Une unité opérationnelle*، لا وحدة حقيقية *Une unité réelle*؛ هي انعكاس لوحدة الوجود، لواحديّة الموجود الحقيقي الأوّل، كالصور المتعدّدة المنعكسة في المرايا تحرّكها أنسام شوق الصيرورة إليه.

طبعًا حَرِصْنَا، في توضيحنا هذا، أن لا نتجاوز الحقل الموضوعي، أي مستوى الأنا الظاهرة *le moi apparent*: فكلّ ما ورد في هذا المستوى، لا يتفق، بطبيعة الحال، مع ما نسمّيه بالأنا أو الذات الحقيقية وفق التعاليم العرفانية، وهي المغلّفة والمتداخِلة في جميع العناصر والكائنات تداخُل الطاقة ذاتها فيها؛ لأنَّ مثل هذا البحث يخرج عن نطاق العلم الموضوعي إلى حقل ما وراء الطبيعة.

هذه الحركة المتواصلة الهائلة في كلّ شيء، وعبر كلّ شيء، يشير إليها روبرت لينسن *Robert Linssen* في تحليله الجميل:

« Rien n'est immobile, ni dans la matière ni dans l'esprit. Tout se meut, tout se transforme ».

« Constantin Brunner déclare que le mouvement constitue l'essence – une de tous les phénomènes différents ».

« A l'échelle d'observation moléculaire nous savons que les molécules d'un fragment d'acier effectuent environ 8.000 mill-

-iards d'oscillations par seconde. Celles du diamant, symbole de la dureté et de l'immobilité, effectuent environ 39.000 milliards d'oscillations par seconde ».

« Les électrons planétaires des différents corps effectueront, chaque seconde, entre 200.000 et 6 millions de milliards de révolutions autour du noyau central ».

« Plus en profondeur encore, nous assistons, au cœur même des noyaux atomiques, à des intensités de mouvement infiniment plus grandes ».

« A la somme des mouvements qui précèdent s'ajoutent non seulement les mouvements spécifiques des électrons et protons tournant sur eux-mêmes, mais aussi les mouvements prodigieux des milliards de milliards d'inter-échange entre protons, neutrons et pions au cœur du noyau. Et ce n'est pas tout. Car à l'impressionnante superposition de mouvements qui précède, s'ajoutent les échanges intensifs de l'interfusion cosmique résultant du fait qu'il existe une présence potentielle de chaque corpuscule atomique qui s'étend jusqu'aux ultimes confins de l'univers ».(p.p. 73-75).

« ما من شيء في المادة أو في الفكر جامد لا يتحرّك. كلّ شيء يتحرّك، كلّ شيء في تحوّل وتبدّل ».

« ويعلن قسطنطين برونر: إنّ الحركة هي الجوهر الواحد لجميع الظواهر المختلفة ».

« وفي مستوى مراقبة الهباء *molécules*، فإننا نعلم أنّ هباءات *molécules* قطعة من الفولاذ ترجرج وتهتزّ بسرعة ثمانية آلاف مليار

من الذبذبات في الثانية الواحدة تقريبًا ». وهباءات الماس، وهو رمز القساوة والجمود، تتذبذب تسعة وثلاثين ألف مليار ذبذبة في الثانية تقريبًا ».

« والكهيربات الكوكبية لمختلف الأجساد تدور حول النواة المركزية بمقدار مايتي ألف إلى ستة ملايين من مليارات الدورات في الثانية الواحدة ».

« وإذا ما تطلّعنا أعمق من ذلك، نشهد، في قلب وصميم النوى الذرّي، احتدام حركة أشدّ وأعظم بكثير ».

« ويجب أن نضيف إلى مجموع الحركات التي سبق ونوّهنا عنها، ليس فقط الحركات المختصّة بالكهيربات والبروتونات الدائرة أيضًا على ذاتها، ولكن يجب أن نضيف إلى ذلك أيضًا الحركات الهائلة المكوَّنة من مليارات المليارات من المبادلات *inter-échanges*، القائمة والحاصلة بين الجزيئات (البروتونات والنيوترونات والبيونات) في قلب النواة ».

« ولكن ليس هذا أيضًا نهاية المطاف؛ لأن فوق تراكم الحركات المدهشة والمروّعة التي أشرنا إليها سابقًا، تُضاف المبادلات النشيطة القوية للتداخل والانصهار والاشتراك الكوني *Interfusion Cosmique* الناجم عن وجود وقيام فعل وتأثير وحضور لكلّ جزيء ذرّي، ينتشر حتى حدود الكون البعيدة الأخيرة ».

هذه الحركة الدائمة الهائلة، وهذا التبدّل المستمرّ السريع، وهذا

التغيير والتحوّل الذي لا يستقرّ ولا ينقطع على شاشة الوجود الثابت، يذكرها أيضًا هيراقليطس *Héraclite* بآيات هادئة وحلوة المذاق العقلي:

« *Le soleil se renouvelle chaque jour. Il ne cesse d'être éternellement nouveau* ». (p. 26).

« إنَّ الشمس تتجدّد في كلّ يوم. فهي تظلّ جديدة دائمًا مدى الأزل ».

« *On ne peut descendre deux fois dans le même fleuve, ni toucher deux fois une substance périssable dans le même état, car elle se disperse et se réunit de nouveau par la promptitude et la rapidité de sa métamorphose: la matière, sans commencer ni finir, en même temps naît et meurt, survient et disparaît* ». (p. 37).

« لا يمكن الاغتسال مرّتين في مياه النهر الواحد، ولا لمسنا مرّتين على التوالي للمادة الفانية، وأن تظلّ هي في الحالة ذاتها، لأنّها تتوزّع وتتفتّت ثمَّ تتجمّع من جديد باستعدادها الفوري وسرعتها في التحوّل: إنَّ المادة، دون أن تبدأ أو تنتهي، تولد في آن واحد ثم تموت، تظهر ثمَّ تضمحلّ ».

ويورد هيراقليطس هذه الآية الأخرى التي تلقي الضوء الحقيقي على أحداث الموت والحياة:

« *C'est même chose que vie et mort, veille et sommeil, jeunesse et vieillesse: ce sont mutuelles métamorphoses* ». (p.36).

« إنّه لشيء واحد الحياة والموت، والصحو والنوم، والشباب والشيخوخة: فهي ليست إلا تحوّلات متداخلة ».

« Car le feu (l'énergie) pilote le tout à travers le tout sans jamais laisser l'univers immobile ». (p. 36).

« لأنّ النار (أي الطاقة) تقود الكلّ وتسيّره عبر الكلّ، ولا تترك الكون يبقى أبدًا بدون حركة ».

ويعلّق أحد العلماء على نظرية الحركة بقوله:

« Seul le mouvement pur existe ».

« إنّ الحركة المحض وحدها هي موجودة ».

ويوضح هايزنبرغ اتجاه هذه الحركة الدائبة وثبات قواعد صيرورتها:

« L'élément constant en physique depuis Newton, ce n'est pas une configuration ou une forme géométrique, mais une loi dynamique; l'équation du mouvement se maintient à travers tous les temps, elle est en ce sens éternelle, alors que les formes géométriques (comme les orbites) changent ».

« La loi fondamentale du mouvement de la matière n'est pas encore connue et l'on ne peut en déduire mathématiquement les propriétés des particules élémentaires. Mais la physique théorique, dans son état actuel, ne semble pas très loin de ce but, et nous pouvons au moins dire à quel genre de loi nous devons nous attendre ».

« L'équation définitive du mouvement de la matière sera probablement une équation ondulatoire non linéaire et quantifée pour un champs ondulatoire d'opérateurs qui ne représentera que la matière et non une onde ou particule spécifique ». *(p. 70).*

« إنَّ العنصر الثابت الدائم في الفيزياء منذ عهد نيوتن ليس تشكيلة أو شكلاً هندسيًا، ولكنه شرعة دينامية. إنَّ معادلة الحركة تبقى هي ذاتها عبر جميع الأزمنة، فهي من هذه الوجهة أزلية، بينما تتبدّل وتتغيّر الأشكال الهندسية (كالمدارات مثلاً) ».

« إنَّ الشرعة الأساسية لحركة المادة هي غير معروفة حتى الآن، وبالتالي لا يمكننا أن نستخرج منها الصفات الخاصة للجزيئات البسيطة الأوليّة. ولكن يبدو أن علم الفيزياء النظري، في حالته الحاضرة، لم يعد بعيدًا جدًّا عن تحقيق هذا الهدف، ونستطيع على الأقل أن نقول أي نوع من الشرع يمكننا أن ننتظر الكشف عنه ».

« إنَّ المعادلة الأخيرة لحركة المادة ستكون على الأرجح معادلة مَوْجيّة لا معادلة خطّ مستقيم، وهي ستكون معتملة بشحنات كميّة محدّدة ومحصّصة *quantifée* وفق سنن الـ *quanta* بالنسبة لحقل متموّج يتضمّن الفواعل، ولن يمثّل هذا الحقل إلا المادة، لا موجة أو جزيئًا ».

ويأمل هايزنبرغ أن تكون هذه الشرعة الأساسية للمادة شرعة حسابية بسيطة *Une loi mathématiquement simple* كما كان يتصوّرها فيثاغورس.

هذه الطبيعة المتموِّجة للشرعة الأخيرة للمادة قد تصوّرتها ووصفتها كذلك النظريّات الكسمولوجية الهندية في إشارة مأثورة للحكيم فيفكنندا:

« Chaque forme représente comme un tourbillon dans l'océan infini de la matière, et pas une de ces formes n'est constante. Tout comme dans un torrent impétueux il peut y avoir des millions de tourbillons, dans chacun desquels l'eau se renouvelle à tout instant, tourne rapidement pendant quelques secondes, puis s'échappe pour être remplacée par une autre masse d'eau, de même l'univers tout entier est une masse de matière incessamment changeante dans laquelle toutes les formes de l'existence sont autant de tourbillons». (Yogas pratiques,p. 402).

« إنَّ كلّ شكل أو صورة يُمثِّل بزوبعة لولبية في أوقيانوس المادة اللامتناهي، وما من صورة ثابتة دائمة؛ تمامًا كما يحدث في الجدول المتدفّق الهائج أن توجد وتظهر فيه الملايين من الزوابع اللولبية، يجدّد الماء المكوِّن لها كلاً منها، في كلّ برهة، فيدور بسرعة فيها بضع ثوانٍ معدودات ثم يغادرها بعد أن تقوم كتلة أخرى من الماء بالدخول إلى هذه الزوابع وتحريكها وتصويرها، كذلك الكون بأسره هو شبه كتلة من المادة تتبدّل وتتغيّر باستمرار، تقوم وتكون فيها جميع صور وأشكال الوجود كالزوابع اللولبية المتحرّكة المتحوّلة ».

ـ الوحدة انسجام التناقض المتصل المتواصل

أمّا العوامل الدافعة والحافزة لهذه الحركة الدائمة فهي تناقض

الأضداد، أو بالحري تناقض المتنافرين أو المتعاكسين *Contraires*، لأنه لا يوجد أضداد متناقضة *Contradictoires* في المعنى الصحيح للكلمة في مجاري الصيرورة والتكوين.

فالكون في أجزائه النوويّة الصغيرة، كما هو في كواكبه ونجومه وسدمه ومجراته ـ كما هو عليه انعكاس ذلك في حياة الإنسان وفي فكره وتصرّفه ـ فالكون هو تأليف مستمرّ *Structure* للتجاذب والتنافر الدائب في جميع المستويات.

والطاقة الأولية أو جوهر المادة الأولى، في بدء التكوين وبداية الدور *Cycle*، كما يتصوّر ذلك العلم الحديث وتعاليم الحكمة والعرفان في الهند والصين مثلاً: كانت هذه الطاقة هادئة مستكنّة، مجرّد قدرة على التحرّك *Potentiel*، وكانت بطبيعة الحال غير مميّزة القطبيّة *Indifférenciée* أو *Non polarisée*.

ثم جاء وقت ظهر فيه هذا التمييز والتناقض في القطبية من سلبيّة وإيجابيّة، وتجلّى بها التنافر والتجاذب. وكلمات السلبية والإيجابية، كمعظم الكلمات العلميّة، هي محض اصطلاحات لا ندرك في الحقيقة مفهومها الحقيقي، بل ندرك فعلها وواقعها.

وكانت المادة الجوهرية للكون، قبل ذلك، بدون شكل *Amorphe*. ففي اعتمال السلبيّة والإيجابيّة، وتناقضهما وتجاذبهما، تبدأ العناصر والأشكال في الظهور والتكوين.

« Ce qui s'oppose, en se composant, éternellement se pose ». (Héraclite, p. 40).

« إنَّ هذا الذي يتناقض هو قائم وفاعل مدى الأزل »، كما يقول هيراقليطس أيضًا.

والحقيقة أن النظريّات الهندية تشير إلى ماهيتين، تفعلان في تكوين جوهر الوجود، قد توصل العلم الحديث إلى تقرير إحداهما، البرانا أي الطاقة، ولكنه لا يزال في دور التكهّن والاستشفاف والاستبصار بالنسبة للماهية الأخرى، أي "للأكاشا".

« L'akasha, c'est l'existence omniprésente qui pénètre tout, qui imprègne tout. Tout ce qui a forme, tout ce qui est le produit d'une combinaison provient de cet akasha. Il ne peut être perçu, il est si subtil qu'il échappe à toute perception ordinaire; on ne peut le voir que lorsqu'il s'est épaissi, lorsqu'il a pris forme ».

« Quelle est la force qui, de cet akasha, confectionne l'univers? La puissance de prana. Tout comme l'akasha est la substance infinie et omniprésente de cet univers, de même le prana est la force infinie et omniprésente qui s'y manifeste ». (Les Yogas Pratiques, p.p. 397– 398).

« إنَّ الأكاشا (أي الهيولى الأولى الأساسية) هي الوجود الحاضر القائم في كلّ شيء والذي يتداخل كلّ شيء، والذي يغمر ويتسرَّب في كلّ شيء. كلّ ما له شكل، كلّ ما هو ناجم عن تركيب ينتج من هذه الأكاشا. لا يمكن إدراكها. هي لطيفة إلى حدٍّ تتوارى به عن

الإدراك العادي، لا يمكن رؤيتها إلا عندما تتكثّف، عندما تتّخذ شكلاً ".

" ما هي القوة التي تؤلّف وتصنع الكون من هذه الأكاشا؟ هي قدرة " البرانا ". فكما أنَّ الأكاشا هي الهيولى اللامتناهية والقائمة في كلّ شيء لهذا الكون، كذلك البرانا هي القوة اللامتناهية والقائمة المتداخلة في كلّ شيء، والتي تتجلّى وتظهر في الأكاشا ".

قد تكون هذه الأكاشا هي هذه الهيولى أو الحالة الرابعة التي أخذ العلم الحديث يتحدَّث عنها، والتي تتعدّى تكوين جزيئات الذرّات في المادة، أو هي المادة " السائلة ذريًّا " إذا استطعنا تسميتها كذلك، والتي تسبق ظهور الجزيئات: " حالة البلاسما *L'état de plasma de la matière* "، والتي لوحظ وجودها في بعض النجوم الشديدة الحرارة.

هذا التناقض الذي تبدعه الطاقة هو أساس كل تكوين وهو كما سبق وقلنا، ليس هو تضادّ في المعنى المعروف، إذ لا يقوم الضدّ إلا بزوال نقيضه، بل هو تكامل وموازاة في تناقض دائب وفق شرعة التكامل والتقابل *La loi de complémentarité* التي اكتشفها العلم الحديث.

ولا يسعنا في هذا المجال إلاّ أن نشير إلى نظريات تكوين المادة عَبْرَ وبواسطة التناقض الذي أبرزته، بشكل جليّ كامل مدهش، النظريّات الصينيّة القديمة المعروفة بالإن/يانغ أو الإن/يو *In/Yo* وسنكتفي ببعض التأملات، منها:

- القاعدة أو الشرعة الواحدة الفريدة التي وضعها كبار حكماء وعلماء الصين بضع آلاف من السنين قبل ولادة الناصري:

يقول سيرج آليسيف ورينيه جروسي في مقدمتهما لكتاب سوكورازافا:

« L'atome une fois dissocié, l'ancienne entité matière une fois résolue en tourbillons électriques, c'est bien la Çunyata et le wou – ki, l'éther vacuitaire qui se trouve à l'origine de tout. Mais voici qu'aussitôt que posé, cet éther oppose ses valeurs électriques positives et négatives, créatrices d'un noyau positif et d'électrons négatifs dont la gravitation aggloméra la matière concrète et créera l'univers. N'est–ce pas la confirmation inattendue de l'opposition, de l'attraction et de la collaboration intime et constante du yin et du yang? Et cette même loi mystérieuse, ne la retrouvons–nous pas à la base de la chimie jusque dans le rôle respectif des alcalins et des acides, à la base même de la génération dans la différentiation, la collaboration et la fécondité des sexes? ».

« On voit tout l'intérêt des problèmes posés par M. Sakurazawa. D'antiques données orientales qui, hier encore, passaient pour des rêveries désuètes reprennent une valeur singulière actuelle depuis que les dernières découvertes de nos laboratoires leur apportent une confirmation inattendue ». (p.p. 5 – 6).

« حينما تتفكّك الذرّة، وتتحلّل ماهية المادة المعروفة قديمًا إلى زوابع لولبية كهربائية، فإنَّ الذي يوجد في مصدر الأشياء هو

السونياتا والووكي، أي الأثير الفراغ ».

« ولكن هذا الأثير، لا يلبث، فور وجوده وقيامه، أن يناقض بين قيمه الكهربائية الإيجابية والسلبية، الخالقة للنواة الإيجابية وللكهيربات السلبية، التي يكوِّن انجذاب دورانها المادة الحسّية الماثلة ويبدع الكون. أليس ذلك توكيدًا غير مرتقب للتناقض والانجذاب والتعاون المتداخل الصميمي والمتواصل للإن واليانغ؟ وهذه الشرعة العجيبة ذاتها ألا نجدها في أساس علم الكيمياء، حتى في الدور المتقابل للقلويّات والحوامض، وفي أساس التوالد فيما هو عليه من مباينة وتوافق وخصب في الأجناس؟» .

« وإننا ندرك الأهمية البالغة لهذه المعضلات التي وضعها سوكورازاقا؛ فبعض المفاهيم والمعطيات الشرقية العتيقة التي كانت تبدو، لأيّام خلت، وكأنّها أحلام مسترسلة لا حساب ولا معنى عمليًّا لها، فإذا بها تتخذ قيمة خاصة وعصرية مكَّنت الاكتشافات الأخيرة في مختبراتنا من توكيد صحة توافق هذه المعطيات والمفاهيم القديمة ».

ـ مبدأ بقاء المادة وتحوّل المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة، ونظريّة الحقل *Le champs* والنسبيّة العامة *La relativité généralisée* ونسبيّة الزمان والمكان من ضمنها؛ والماهية الحسّية للعالم الخارجي

إنَّ جميع هذه المبادئ والنظريّات، التي أضحى بعضها حقائق في

العلم الحديث، نجدها جميعها، منذ آلاف السنين، ظاهرة واضحة ـ وأكثر دقّة وكمالاً ـ في تأمّلات الحكماء الأقدمين وأرباب العرفان.

ومجال هذا البحث ضيّق في الحقيقة. يجب أن تُفرد له مقالات وربما كتب مستفيضة. نكتفي ببعض نتف نلتقطها من إدام مائدة الحكمة، على حدّ تعبير القرآن الكريم: ﴿ اللهم انزل علينا مائدة من السماء، تكون لنا عيدًا لأوّلنا وآخرنا ﴾. وما أشهى وأطيب مائدة العرفان!

وبما أننا انطلقنا في حديثنا من الحركة، أي من الطاقة التي تظهر في الحركة، ولا تدرك الطاقة بدون هذه الحركة، فسنكمل تحليلنا انطلاقًا من الحركة:

« Le mouvement quel qu'il soit, dit Sukurasawa en expliquant les thèses de la vieille Science et philosophie d'Extrême-Orient, n'existe qu'en notre sens intime. L'origine du mouvement n'est autre chose que celle de notre connaissance. Le mouvement est donc sans commencement ni fin dans notre connaissance, il n'est plus au-delà de notre connaissance. Chercher l'origine du mouvement par la « connaissance », c'est comme chercher la dernière image d'un miroir dans un autre miroir ».

« إنّ الحركة ـ أية كانت هذه الحركة ـ يقول سوكورازاوا في تفسير نظريّات العلم القديم، والفلسفة القديمة للشرق الأقصى، لا توجد إلا في حسّنا المتناهي. فإنّ مصدر الحركة ليس إلا في معرفتنا لها. فليس للحركة إذًا بداية أو نهاية في معرفتنا؛ فالحركة لم تعد تتعدّى أو تتجاوز

معرفتنا. فاستقصاء منشأ الحركة بوساطة المعرفة يعادل أو يشبه التفتيش عن الصورة الأخيرة المنعكسة لمرآة في مرآة أخرى".

إنَّ هذا التحديد، الذي قد يبدو صعب المنال، ولكنه بحدّ ذاته واضح تمامًا، يطرح مشكلة المعرفة ـ معرفة الفكر والحواس ـ ونسبيّة هذه المعرفة؛ لأنَّ الإنسان، هذا الإنسان بالذات أو ذاك، أكان عالمًا أم جاهلاً، لا يمكن أن ينفصل ـ في فعل المعرفة ـ عن فكره وحواسه، وهي بالتالي جزء من الغرض الموضوعي، من الكون، الذي يريد أن يعرفه. هو داخل في الحقل *Le champs*، في حقل الاختبار والرؤيا، على حدّ تعبير آينشتاين. والنسبيّة قائمة في هذا الحقل وضمنه ـ نسبيّة الزمان والمكان، وبالتالي نسبيّة السببيّة *Causalité* التي يولّدها الزمان والمكان. فالحقائق العلميّة التي يمكن أن نتوصّل إليها لن تكون إذًا إلا حقائق نسبيّة؛ كساعة المسافر في صاروخ تقرب سرعته من سرعة الضوء، على حدّ مثل آينشتاين، ينتقل عقربها الصغير درجة مؤذنًا بمرور ساعة من الزمن الذي يتضمّنه الصاروخ، أما بالنسبة للإنسان الذي يكون على الأرض يتطلّع إليه بمرقبه، فقد تمرّ ليال وأيام، بل شهور وسنون وربما أجيال في الفترة ذاتها، لأن الحركة هي التي تقرّر الزمان في النهاية عندما تقترب من سرعة ضوء الشمس.

عرف هذا الأقدمون، وتأمّلوا به طويلاً، وقاسوا زمان النائم الحالم الذي يرى في حلمه حدثًا قد يستغرق شهورًا وسنوات، فإذا به بضع ثوان أو دقائق معدودات من زمن الرجل الصاحي. ثم فتشوا عن ماهية الزمان وزميله المكان الملازم له معظم الأحيان، فرأوا في

بصيرة العقل الرفيع أن الزمان والمكان مفهومان نسبيّان لا وجود لهما في الخارج ـ وهل يوجد هنالك خارج كما سنرى؟ ـ بل هما قياسان من فكر الإنسان مرتبطان بسعي الفكر وبحركته. وهل يستطيع أحد أن يفصل فكره عن الزمان، أو الزمان عن فكره، في إدراكه للوجود الحسّي؟!

وهنالك وجه آخر لهذه النسبيّة ينجم كما سبق وأشرنا عن فعل المعرفة ذاتها، وبالأصحّ فعل الإدراك؛ ويقول الحكيم شري أتماننذا في هذا المعنى:

« Relative means in relation to me and not in relation to other objects, as is ordinary understood. Everything is concerned with Me first and only through me to something else ». (Spiritual Discourses, p. 67).

« Relativity according to science, and in ordinary parlance is only between objects themselves. But according to Vedanta relativity is only between the subject and the object. Without the subject's perception, there can never be any object ». (p. 70).

« النسبيّ هو ما هو نسبيّ بالنسبة إليّ لا بالنسبة للأغراض الأخرى، كما يفهم من ذلك عادة؛ فعلاقة كل شيء وتعلّقه هو وهي بي أوّلاً، ثمّ تكون علاقته بشيء آخر عبري وخلالي ».

« النسبيّة بالنسبة إلى العلم وفي المعنى العادي للكلام، هي التي تقوم بين الأغراض نفسها؛ ولكن بالنسبة إلى الفيدنتا، فالنسبيّة هي

فقط بين الشخص وبين الغرض. بدون إدراك الشخص، لا يمكن أن يوجد غرض مدروك ».

نستنتج من هذا القرار:

أوّلاً ـ أننا لا نستطيع أن نقارن بين ظاهرتين أو حدثين حتى ولو وقعا في آن واحد أو على مسافة واحدة، لأننا لا ندرك هذه الأحداث والظواهر إلا بعد مرور فترة على وقوعها. فكما يقول العلماء والحكماء على السواء، نحن لا ندرك الأشياء إلا في الحالة التي تكون عليها بعد انقضاء مدة قصيرة أو طويلة من الزمن بين حدوثها وبين بلوغها حواسنا، ثم تحوّلها إلى ذبذبات عصبيّة معيّنة تبلغ بها إلى مراكز السمع والبصر أو اللمس والذوق. فالبرق اللامع لا نراه إلا بعد مرور أجزاء من الثانية على حدوثه، وقد تنقضي بضع دقائق حتى نسمع صوت الرعد القاصف من المكان الذي نحن فيه. أمّا عن النجوم وبعض المجرّات البعيدة، فلا ندرك منها حسيًّا وعلميًّا ـ والعلم مرتبط بإدراك الحواس وبانفعال حواسنا وأعصابنا ـ إلا الحالات التي تكون عليها بعد مرور سنوات وأجيال، وأحيانًا آلاف وملايين ومليارات الأعوام. فمعرفتنا للكون مقتصرة على إدراك ما كان عليه الكون ـ في تفاوت زمني صغير وكبير ومتنوِّع في الحين ذاته ـ لا كما هو عليه في الحقيقة وفي هذه الثانية بالذات التي نعيش ونفكر فيها. فالصور التي تأتينا من كلّ كائن ومن كلّ شيء هي صور خادعة، لا تروي لنا عن حقيقة الآن شيئًا على الإطلاق.

ثانيًا - أنَّ النسبيّة قائمة بالنسبة للإنسان بسبب وجوده في مكان وزمان معيّنين من الكون، على هذه الحبّة الصغيرة من الغبار التي تحملنا وتسير بنا في مدار صغير.

ولا أجد في إيجاز كلّ ذلك أروع من وصف الصديق المرحوم الدكتور روجيه جوديل *Roger Godel* لعملية الإدراك من المواجهة العلميّة المحض في كتابه المدهش في دقّته وجماله " حوار حول الاختبار المحرِّر *Dialogues sur l'Expérience Libératrice* ":

Claude – « *Les formes avec l'entière signification qui leur est attachée sont l'œuvre de votre champs de conscience. Leur structure a ses racines dans votre propre structure; elle en est issue et s'y confond en retour* ».

« *Je suppose qu'un cerveau très différent du vôtre – le réseau ganglionnaire d'une fourmi par exemple – produirait dans son champs de conscience un tout autre paysage. Bien entendu l'Illyssos n'y serait point une rivière d'Athènes, ni Socrate un Sage. Jusqu'ici j'accepte encore de vous suivre. En intégrant les objets dans l'unité d'un champs de conscience, vous les rendez intérieurs. Il révèlent la phénoménologie de leur nature: représentations sensorielles, images, qualités, attributs, valeurs apposées sur des formes, formes apposées sur des valeurs. Cependant bien que le paysage soit une expression de mon activité sensorielle et ne puisse être séparé de moi, je le situe néanmoins hors de mon corps. L'arbre n'a pas sa résidence dans mon cerveau...* ».

Menon – « *C'est pourquoi l'escamotage de « L'univers extérieur » n'aura pas lieu. Renonçons à opposer l'un à l'autre le*

monde extérieur et le monde intérieur. Ils sont inséparables tout autant qu'objet et sujet ».

« L'arbre est en vous... et unique. C'est indéniable. Sa forme est un effet de votre vision ».

Claude – « Et ma vision ne peut être séparée de moi – même. La contemplation de l'arbre me met en présence de mon être. Etrange tête à tête dans la solitude ». (p.p. 38 – 41).

كلود ـ " إنّ الأشكال مع المعنى الكامل العالق بها هي من صنع حقل وعيك. فإنّ بنيتها هي عميقة الجذور في كينونتك أنت، وتصدر عنها؛ فبنية الأشكال تنبثق من كينونتك الخاصة ثم تعود فتمتزج وتتداخل بها ".

" إنّني أتصوّر أنّ دماغًا مختلفًا تمامًا عن دماغي ـ كالشبكة العقديّة العصبيّة للنملة مثلاً ـ يُحدِث في حقل وعيها مشهدًا آخر. لن يكون طبعًا فيه الإليسوس ذاك نهر أثينا، ولا سقراط حكيمًا. إنّني أوافق على تتبّعك فيما تذهب إليه إلى هنا؛ ففي استجماع الأغراض في وحدة حقل الوعي، إنّك تجعلها أغراضًا داخلية. إنّها تبدي صفة الظاهرات لطبيعتها: وهي تمثلات حسّية وصور وأفكار وصفات وقيم انتسبت وتركّزت إلى أشكال، وأشكال ركّزت ونُسبت إلى قيم. على أنه بالرغم من أنّ المشهد هو تعبير لنشاطي الحسّي ولا ينفصل عني، فإنّني أراه قائمًا خارج جسدي. فالشجرة لا تقيم في دماغي ".

مينون ـ " ولكن، فإنّه لهذا السبب لن يحتجب هذا العالم الخارجي أو يتوارى خفّة ومواربة، بل علينا أن نعدل عن عادة مناقضة

ومعاكسة كلّ منهما بالآخر: أي العالم الخارجي بالعالم الداخلي؛ إنهما لا ينفصلان في علاقة الشخص المدْرِك بالغرض المدروك ».

« إنَّ الشجرة هي فيك. وهي هي وحدها. هذا ممّا لا شكّ فيه؛ فإنَّ شكل الصورة إنّما هو نتيجة رؤيتك ».

كلود - « ورؤيتي لا يمكن فصلها عن ذاتي. فشهود الشجرة يضعني في حضرة ومشاركة وجودي وكينونتي. ما أروع وأغرب تلك الخلوة! ».

ويتوجّه بنا الحكيم فيمكّننا إلى نظرة أوسع وأجرأ للنسبيّة قد تعدّى، ربما، فيها وتجاوز نطاق تصوّر العلم، في تأمّله للكون كوحدة مطلقة:

« Le mouvement est toujours une chose relative. Je bouge par rapport à quelque chose. N'importe laquelle des particules de cet univers peut changer par rapport à n'importe quelle autre particule; mais prenons tout l'univers comme ne faisant qu'un, et alors par rapport à quoi peut–il se déplacer? A part lui, il n'y a rien. Aussi cette unité infinie est-elle inchangeable, immuable, absolue ».

« إنَّ الحركة هي دائمًا شيء نسبي. إنّني أتحرّك بالنسبة لشيء ما. أي جزء من هذا الكون يمكن أن يتبدّل بالنسبة لأي جزء آخر. ولكننا إذا اعتبرنا أن هذا الكون بأسره يؤلّف وحدة بحدّ ذاته، فبالنسبة لأي شيء آخر يستطيع إذًا أن ينتقل أو يبدّل مكانه؟ في ما عدا هذا الكون، لا يوجد شيء. وهكذا فإنَّ هذه الوحدة اللامتناهية لا تتغيّر ولا تتبدّل

وهي ثابتة ومطلقة ".

كذلك هي نسبيّة نظرة الإنسان المتفحّصة لهذا الكون انطلاقًا من زاوية الأرض التي تحمله وتدور به في فسحة اللامتناهي. وتوجد مئات الآلاف مثل هذا الغبار الحامل بعضها للإنسان في مجال اللانهاية الواسع، كما ترشدنا أيضًا إلى ذلك الآية الحكميّة، مثلاً عند إخواننا الموحّدين الدروز: " وما من شيء في السموات والأرضين، أو في ما بينهما، أو دون ذلك إلا خلق وأمم أمثالكم ". هذا النظر للكون من زاوية يفرض علينا ـ دون أن نستطيع أن نتحرّر من ذلك ـ نسبيّة معيّنة.

ثالثًا ـ أمّا النسبيّة الثالثة فتتعلّق بما يمكن تسميته بالمستويات المختلفة للإدراك أو ـ إذا شئنا التعبير الأوفق ـ بالحقول المختلفة للرؤية *The different levels of perception ـ Champs de vision*؛ نأخذ على ذلك مثلا بسيطًا: إنّ الكثافة المادية والجماد المحسوس والجمود الظاهر الذي نراه ماثلاً في هذا الغرض المحسوس أو ذاك، في الحجر مثلاً، في حقل أو مستوى إدراك حواسنا له، تضمحلّ فيه الكثافة المادية، ويتوارى فيه كلّ امتلاء جماد، ويضمحلّ جموده الظاهر، إذا نظرنا إليه من حقل أو مستوى مجهر إلكتروني قوي! فإذا بالحجر فراغ مشحون تملؤه وتحدّده الحركة، أو هو في نظرة علماء الحساب حركة تحدّد بذاتها نطاق هذا الفراغ المشحون. والأغرب، أنه لا تعود بعض القواعد العلميّة الفيزيائية التي يخضع لها هذا الغرض المحسوس الذي نسميّه حجرًا، تنطبق على مسيرة الذرّات والجزيئات التي يتكوّن منها هذا الحجر.

ويقول في ذلك الحكيم شري أتماننداً:

« The world depends upon the subject alone. The world appears exactly in terms of the stand taken up by the subject ». (p. 107).

« إنَّ العالم يتوقّف شهوده على الشخص وحده. الكون يظهر تمامًا في معالم المقام الذي يكون الشخص قد اتّخذه منه ».

ـ الحياة والتطوّر والأدوار والحرية

لا نجد بدًّا في اختتام هذه الجولة القصيرة والإطلالة السريعة على عالم التكوين والإنسان، من أن نذكر توافق ومشاركة العلم الحديث والحكمة الألفية، في تصوّر الحياة والتطوّر والحرية، على ما يُدرك من سبق وتقدّم مفاهيم العرفان على العلم في هذا المجال.

أما الحياة، فهي ظاهرة متقدّمة لتيّار التطوّر أو التعقّد والتركيب المادي، كما سبق وأشرنا، وهي لا بدَّ موجودة، بشكل من الأشكال منذ البداية؛ لأنَّ الذي لا يكون مُسْتَبْطَنًا في البداية لا يمكن أن يظهر في النهاية، لأنّ ما من شيء يخرج ويُولد من العدم، أي من اللاشيء. هي قاعدة العلم الحديث والحكمة التقليدية على السواء.

ولذا، فالتطوّر نظرية علميّة وحقيقة عرفانيّة ثانية. ويوضح الحكيم ڤيڤكننداً:

« De quoi cet univers est-il issu? D'un univers plus subtil qui l'a précédé. De quoi l'homme est-il issu? De la forme subtile qui l'a précédé. De quoi l'arbre est-il issu? De la graine, qui le contenait tout entier. Il en sort et il devient apparent ».

« Or nous voyons que les formes subtiles sortent lentement et s'épaississent de plus en plus jusqu'à ce qu'elles atteignent leur limite – et lorsqu'elles ont attent leur limite, elles retournent en arrière, progressivement, et deviennent de nouveau de plus en plus subtiles. Ce passage du subtil au plus grossier, ce simple réarrangement des éléments, pourrait–on dire, est-ce que dans les temps modernes on a appelé l'évolution ».

« C'est une chose très vraie, parfaitement vraie: nous la voyons dans notre vie. Aucun homme qui a sa raison ne saurait se prendre de querelle avec les évolutionnistes ».

« من أي شيء صَدَرَ هذا الكون؟ من كون ألطف سبق نشأته. من أي شيء صَدَرَ الإنسان؟ من الصورة اللطيفة التي سبقت نشأته. من أي شيء صَدَرَت الشجرة؟ من البذرة أو النواة التي كانت تتضمّنها بكلّيتها؛ فتخرج الشجرة وتَضحى بادية للعيان ».

« وهكذا الكون بمجموعه، فإنّه قد أبدع من ذاك الكون الذي سبق ووُجد بشكل ألطف وأصفى. وهذا الكون سيرجع فيما بعد إلى هذا الشكل اللطيف ثم يعود فيبدو للعيان ».

« ولكننا نرى الأشكال والصور اللطيفة تخرج ببطء وتتكثف أقوى فأقوى حتى تبلغ حدَّها؛ وحينما تبلغ حدَّها، تعود إلى الوراء تدرّجًا وتصبح من جديد أكثر لطافة. وهذا العبور من اللطيف إلى

الأكثف حالاً، وهذا الترتيب المعاد نظمه للعناصر، إذا استطعنا أن نقول ذلك، هو الذي سُمّي تطوّرًا في العصور الحديثة ".

" فالتطوّر أمر صحيح جدًّا، صحيح تمامًا: نرى التطوّر في حياتنا. وما من إنسان يملك عقله يستطيع أن يجادل أو ينابذ المؤمنين بالتطوّر ".

ويختم فيفكنندا هذه النظرة من تحليله بالملاحظة التالية التي تكشف عن حقيقة أخرى في مسيرة التكوين، هي نظرية الأدوار *La théorie des cycles* التي قَبِلَها وأخذ بها العلم أخيرًا في حقل التكوين المادي، وكذلك توحي هذه النظرية إلينا بأهمية الذاكرة والتذكّر وفق تعبير أفلاطون الشهير، في الفعل في مستوى هذا التكوين ـ كما لو كان هنالك فكر كوني *Une pensée cosmique* يحفظ كلّ شيء وكلّ واقعة ثم يظهرها من جديد. أوَليست سنن الوراثة والغريزة حافظة بحدّ ذاتها؟ وتكون هذه الحافظة الذاكرة في هذا التصوّر الواسع الجامع الشامل تستبطن المادة وعالم الحياة والفكر على السواء:

« Nous voyons donc que rien ne peut être tiré de rien. Toutes choses existent de tout éternité et existeront à jamais. Seulement le mouvement comprend une succession de vagues et de dépression, ramène aux formes subtiles, et de nouveau conduit aux manifestations plus grossières. Cette involution et cette évolution se reproduisent dans toute la nature. La série toute entière des cycles de l'évolution en commençant par la manifestation de vie la plus rudimentaire et en allant jusqu'à la plus haute, jusqu'à l'homme le plus parfait, doit correspondre à l'involution de quelque autre chose ».

« إننا نجد اذًا أنَّ ما من شيء يخرج من لا شيء. كلّ شيء وُجد مدى الأزل، وسيوجد إلى الأبد. إنمّا تتضمّن الحركة تتابعًا من الأمواج والانخفاضات، وهي تعود إلى أشكالها اللطيفة ثم تعود إلى الظواهر الأكثر كثافة. هذا الاستبطان وهذا التطور يتمثلان ويترددان في الطبيعة كلّها. إنَّ السلسلة الكاملة لأدوار التطوّر، بدءًا بمجلى الحياة الأكثر بدائية حتى بلوغ أرفع تجلّياتها في الإنسان الأكمل، هذه السلسلة الكاملة لأدوار التطوّر يجب أن يقابلها استبطان شيء آخر ».

هذه المواجهة الشاملة للتطوّر في جميع مراحله ومظاهره منذ الجزيئات والذرّات حتى بروز الحياة والفكر والحرية، تذكّرنا بالمراقبة والملاحظة التي أوردها أحد كبار علماء المادة في نهاية تأمّلاته: وكأنَّ الجزيئات في تصرّفها الذي لا يمكن تحديده إلا بقاعدة الأرجحية، يبدو منها أحيانًا كأنَّ لها وعيًا وعقلاً في تجنّبها لبعض العقبات التي لا يمكن من وجهة المنطق المادي أن تحول دون الارتطام بها. كما توحي لنا هذه النظرة للتطوّر الشامل ما ذهب إليه تيلار دي شاردان في اعتماده وتصوّره احتمال الجزيئات ذاتها لذريرات أو حبيبات صغيرة جدًّا من الوعي والحياة.

وقديمًا جدًّا في كتب هرمس ذي الثلاث شعب *Hermès Trismégiste* والمنسوبة إلى المذاهب السرّية في مصر الفرعونية، نجد هذه المعاينة التي تجعل من الروح الحيّة أو الأنسام الحيّة في الإنسان *Les souffles du Prana* طاقة مستعلية للطاقة الكونية ذاتها الهادرة من خلال رحى التكوين:

« Considère combien est immense la multitude des vivants immortels, immense celle des mortels, et vois, médiane entre les uns et les autres, immortels et mortels, la lune poursuivant sa ronde. 8 – Tout est plein d'âme, tous les êtres sont en mouvement ». (Tome I, p. 150).

" اعتَبِر والْحَظْ هذه الأعداد الوافرة الهائلة من الخالدين، وكذلك أيضًا هذه الحشود الهائلة من الذين يموتون، وابصر بينهم وفي الوسيط بين الخالدين والفانين القمر يكمل طريقه. ٨ ـ الكلّ مليء بالأرواح، جميع الكائنات هي في حركة ودوار ".

وفي مكان آخر:

« N'as-tu pas entendu dire dans les leçons générales que c'est d'une seule Ame, l'Ame du Tout, que sont sorties toutes ces âmes qui tourbillonnent dans le monde, comme distribuées en ses parties ». (p. 116).

" ألم تسمع ما قيل في الأمثولات العامة، بأنّ من الروح الواحدة، من روح الكلّ، قد انبثقت جميع هذه الأرواح التي تتحرّك في دورانها في العالم، كأنها قد وزّعت في أجزائه ؟!".

ويضيف شارحًا تطوّر التيّار الحي على طريقته:

« De ces âmes donc, nombreuses sont les métamorphoses, des unes vers un sort plus heureux, des autres vers un sort contraire: car les âmes rampantes passent en des animaux aquatiques, les âmes aquatiques en des animaux terrestres, les âmes terrestres en des volatiles, les âmes aériennes en des hommes, enfin les âmes humaines font leur entrée dans l'immortalité en

se changeant en démons, puis dans cet état en passant dans le chœur des Dieux». (p. 116).

« كثيرة اذًا هي الاستحالات المتشكلة بصور جديدة للأرواح، بعضها إلى مصير أسعد، والبعض إلى مصير هو نقيض ذلك: لأن الأرواح الزواحف تعبر وتتحوّل إلى حيوانات مائية. والأرواح المائية إلى حيوانات برّية، والأرواح البرّية إلى طيور، والأرواح الهوائية إلى بشر، وأخيرًا الأرواح البشرية تدخل إلى الخلود متحوّلة إلى الكائنات الخفية، ثم تدخل بهذه الحالة إلى جوق الآلهة ».

ولكنَّ هذا التصوّر لتداخل الحياة ـ حياة الكلّ ـ في جميع الأجزاء والكائنات بنسب متفاوتة طبعًا، تتجمّع فيما بعد كلّما تصاعد الكائن في التركيب والتعقد، تظهر لنا العقل في صميم فعل الكون ذاته، هذا الذي كان يقوله آينشتاين بأنه من غير الممكن أن لا يكون لهذا الكون نظام شامل؛ والنظام يفرض العقل. ويسترسل هرمس في إرواء غليل منطقه العطشان للحقيقة:

« Car le monde, ô Asclépius, a lui aussi sa sensation et son intellection propres, non pas semblables à celles de l'homme, pas même sous le rapport de la variété, mais en général plus fortes et plus simples. 6 – Unique est en effet la sensation et l'intellection du monde, faire toutes choses et les défaire en lui-même ».

« Il n'est rien que le monde n'engendre à la vie; par son mouvement même il vivifie tous les êtres, et il est à la fois le lieu et le créateur de la vie ».

« C'est la rapidité du mouvement du monde qui cause la diversité qualitative des générations. Car le souffle du monde, se

succédant sans interruption, offre sans cesse aux corps des qualités nouvelles, et il n'y a qu'un seul tout, le tout de la vie ».

« لأنَّ لهذا الكون أيضًا، يا أسكليبيوس، إحساسه وتعقّله الخاص به، وهذا الإحساس والتعقّل ليس مماثلاً كما هما عليه في الإنسان حتى في نسبة تنوّعهما، ولكنهما على العموم أقوى وأبسط. ٦ ـ فريد هو شعور الكون وتعقّله، وصنعه وتفكيكه لكلّ شيء في ذاته ».

« فما من شيء لا يبعث به الكون إلى الحياة؛ فهو بحركته ذاتها يحيي جميع الكائنات، وهو موضع ومبدع الحياة في آن واحد ».

« سرعة حركة الكون هي التي تحدث تنوّع الأوصاف في النسل والتولّدات. لأنّ أنسام الكون التي تتوالى بدون انقطاع تمحض الأجساد صفات جديدة أبدًا، ولا يوجد إلاّ كلٌّ فريد واحد هو كلّية الحياة، كلّ وتمام الحياة ».

وخطوة تالية توصلنا إلى تحديد هذه الحقيقة الكامنة وراء الوجود ـ سمّها الله أو سمّها ما شئت: فإنهم يختلفون في التسميات لأنهم في الواقع لا يدركون حقيقة الشيء الذي تُطلق عليه التسمية:

« Qu'est-ce en effet que Dieu, le Père, le Bien, sinon l'être de toutes choses, alors même qu'actuellement elles ne sont pas, que dis-je, la propre réalité de ce qui est? ». (item, p. 113).

« أوَليس الله، أي الآب، أو الخير التام بحدّ ذاته، كينونة كلّ شيء وقوام كلّ شيء، هذا بينما الأشياء ليست في حينها وفي الآن الحاضر

حتى الوجود الخاص لما هو كائن؟ ".

" *Car le Divin c'est l'entière combinaison cosmique rénovée par la nature: car c'est dans le Divin que la nature elle aussi a son assise* ".

" لأنَّ الإلهي هو التآلف والتركيب الكامل الذي تبعثه وتجدّده الطبيعة؛ لأنَّ في الإلهي قد أقامت الطبيعة ركائزها...".

وفي هذه المقابسة، نستنتج أيضًا تأثير الكواكب والأفلاك على الحياة بشكل عام وعلى جلدة هذه الأرض، الأمر الذي بدأ يتنبّه له العلماء العصريون، ولكن في النظر إلى الحياة كحركة *Mouvement* محض حركة، ينفتح أيضًا أكثر من معراج أمام تأمّل المتقدّمين في حقل الأبحاث العلميّة.

أمّا عن الموت والربط بين الطاقة والفكر والغريزة *(Vivekenanda, Yogas Pratiques)*، فنترك إيضاح ذلك لمناسبة أخرى.

في هذه اللمحات السريعة المقتضبة التي توخينا فيها، على محدودية الزمن المخصّص لهذا البحث، وسعة المواجهة ذاتها، أن نظهر بعض ألوان هذه المشاركة والموافقة بين العلم الحديث وتعاليم الحكمة القديمة في جميع العصور وفي كافة البلدان والأمصار، في النظر إلى العالم وإلى الإنسان، نود أن نلمح فقط إلى أنه كان لا بدَّ أن تقع هذه المشاركة والموافقة، مع تقدّم الحكمة والعرفان وسبقها للعلم الحديث في استكشاف النظريّات والحقائق التي يتضمّنها التكوين والوجود

الظاهر، وذلك لأسباب منها: أنَّ العالِم في عملية الاستقصاء العلمي، يلقي بشِبَاك فكره على الأشياء، محاولاً أن يفسِّر ظواهرها بواسطة نظريّات عقله. فإذا ما توسَّم بعض التوافق بين هذه النظريّات وبين الوقائع الحسّية، يقترب قليلاً، محاولاً الزيادة المضطردة من هذا التوافق، بوضعه نظريّات جديدة، تهدف إلى التضييق، ما أمكن، بين المجالات الفاصلة بين الواقع الماثل والشرعة الحسابية المشدودة عليه، وهكذا إلى ما لا نهاية، إلى أن تتوفّر المعادلة الأخيرة التي تمكّن من استيعاب شرائع الوجود الحقيقية في شِبَاك شرائعنا النظرية الفكرية الممدودة عليه.

وفي المجال الآخر ـ أي في تحليل ومشاهدة العرفان ـ يُعْمِل العارف الحكم عقله الرفيع، وهي أداة أسمى من الفكر العادي، أي بصيرته، في تحليل وقائع العالم الداخلي وصور العالم الخارجي، المنعكسة فيه بشكلها اللطيف وكينونتها المبسَّطة، فيتوصّل أرباب العرفان إلى تقرير كيفيات نشوء واستمرار الأشياء وعلاقتها بالعقل، ومحدودية عمل هذا العقل ذاته، وهم يتجاوزون عمل رجل العلم المحض إلى إدراك وتقرير ماهية الأشياء.

وليس من الغريب أن تقع هذه المشاركة ويحصل هذا التوافق في النهاية، وبخاصة عندما يتطوّر العلم ويوشك أن يقترب من تحقيق غاياته، لأننا كثيرًا ما ننسى أن فكر الإنسان هو جزء لا يتجزّأ من جوهر هيولى هذه المادة التي تبدَّت لنا، بتكوينها للطيف، في مجرى

استقصائنا. فالحياة تَرفُّع لطاقة المادة، والفكر، تَرفُّع لطاقة الحياة، أو وجه من وجوهها. فكأنَّ المادة في الإنسان تعلو وتستشفّ لتدرك ذاتها بذاتها، بواسطة وعيه الذي هو نور عقله.

ويمكن القول أيضًا، في تبرير هذا التوافق، إنَّ العالم الحسّي، الذي نسعى جاهدين لتحليله، واستكشاف سننه، هو عالم حواسنا، أي عالم فكرنا، وهو بالتالي جزء لا يتجزأ من مقابلة فكرنا للوجود. أو بكلمة أوضح، يعلن العالم والفيلسوف الياباني سوكورازاقا *Sukarasawa* حقيقة اشتراك المادة والفكر وتداخلهما:

« L'esprit est considéré comme une phase de l'intimité de la nature, dont l'autre phase est dite physique... Les phénomènes psychologiques se produisent dans le sein de la nature intime ainsi que les phénomènes physiques, les êtres. Les phénomènes sont le langage de la nature intime ». (Principe unique de la Philosophie et de la Science d'Extrême – Orient, p. 47).

« يعتبر العقل، أو الفكر، كشقّ أو مرحلة لحميمية الطبيعة؛ والشقّ الآخر أو المرحلة الأخرى هي التي تسمّى مادية. فالظاهرات النفسية تظهر في كنف الطبيعة الحميم، وكذلك الظاهرات المادية والكائنات. إنَّ الظاهرات هي اللغة الحميمة للطبيعة ».

فهرست المحتويات

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

خلفية الغلاف

في هذه اللمحات السريعة المقتضبة التي توخينا فيها، على محدودية الزمن المخصّص لهذا البحث، وسعة المواجهة ذاتها، أن نظهر بعض ألوان هذه المشاركة والموافقة بين العلم الحديث وتعاليم الحكمة القديمة في جميع العصور وفي كافة البلدان والأمصار، في النظر إلى العالم وإلى الإنسان، نود أن نلمح فقط إلى أنه كان لا بدّ أن تقع هذه المشاركة والموافقة، مع تقدّم الحكمة والعرفان وسبقها للعلم الحديث في استكشاف النظريّات والحقائق التي يتضمّنها التكوين والوجود الظاهر، وذلك لأسباب منها: أنّ العالِم في عملية الاستقصاء العلمي، يلقي بشبَاك فكره على الأشياء، محاولاً أن يفسّر ظواهرها بواسطة نظريّات عقله. فإذا ما توسَّم بعض التوافق بين هذه النظريّات وبين الوقائع الحسّية، يقترب قليلاً، محاولاً الزيادة المضطردة من هذا التوافق، بوضعه نظريّات جديدة، تهدف إلى التضييق، ما أمكن، بين المجالات الفاصلة بين الواقع الماثل والشرعة الحسابية المشدودة عليه، وهكذا إلى ما لا نهاية، إلى أن تتوفّر المعادلة الأخيرة التي تمكّن من استيعاب شرائع الوجود الحقيقية في شِبَاك شرائعنا النظرية الفكرية الممدودة عليه.

كمال جنبلاط



https://twitter.com/SourAlAzbakya



ليس من الغريب أن تقع هذه المشاركة ويحصل هذا التوافق ، بخاصة عندما يتطوّر العلم ويوشك أن يقترب من تحقيق غاياته، لأننا كثيرًا ما ننسى أنَّ فكر الإنسان هو جزء لا يتجزّأ من جوهر هيولى المادة التي تبدّت لنا، بتكوينها اللطيف، في مجرى استقصائنا. فالحياة ترفّع لطاقة المادة، والفكر ترفّع لطاقة الحياة، أو وجه من وجوهها. فكأنَّ المادة في الإنسان تعلو وتستشفّ لتدرك ذاتها بذاتها، بواسطة وعيه الذي هو نور عقله. ويمكن القول أيضًا، في تبرير هذا التوافق، إنَّ العالم الحسّي الذي نسعى جاهدين لتحليله، واستكشاف سننه، هو عالم حواسنا، أي عالم فكرنا، وهو بالتالي جزء لا يتجزّأ من مقابلة فكرنا للوجود.

كمال جنبلاط
١٩١٧ - ١٩٧٧